الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

الكتاب هو سر العظمة الأوربية — ماضينا في صحبة الكتاب — الأستاذ الهياوى — بين المدارس والكليات

الكتاب ...

إن الكتاب هو سر العظمة الأوربية ، فما تفوقت أوربا إلا بفضل الحرص على مسايرة الحيوات العقلية في الشرق والغرب ، وما ارتفع رجل في أوربا إلا وهو مزوّد بأصدق وأجود ما صدر في العقول في القديم والحديث

ويستطيع من يعرف إحدى اللغات الأوربية أن يطّلع على أشهر ما جادت به القرائح في أكثر البلاد ، وهذه حقيقة يعرفها من عاش زمناً في مدينة مثل لندن أو باريس أو برلين

الحق أننا لم نفهم أوربا فهماً صحيحاً ، ولم نعرف السر في حيويتها العارمة ، ولم نلمح من خصائصها غير أطياف

إن أوربا مزوّدة بأزواد عقلية لا تخطر لأكثر الناس في بال ، وقد نعرف غداً أو بعد غد أن المستر تشرشل لم تصرفه مكاره الحرب عن صلاته بالمكاتب ودور التجليد ، وقد نعرف أنه لم يخرج من بلد إلا وفي يده كتاب ، على كثرة ما زار من البلاد في أعوام الحرب

أوربا المحاربة لا تخيفني ، فقد هزمناها في الحروب الصليبية ، وإنما تخيفني أوربا المفكّرة ، أوربا التي تؤلف وتقرأ وتستفيد في كل وقت ، بلا استثناء وقت الحروب

هل تذكرون كلمة كارليل حين قال إن انجلترا تفضل آثار شكسبير على أقطار الهند ، لو أكرهتها الحوادث على الاكتفاء بأحد هذين المقسمين ؟

تلك هي العقلية الأوربية ، وذلك هو الفهم الذي يمتاز به أولئك الناس

ماضينا في صحبة الكتاب

لنا ماض مجيد حفظه التاريخ ، فقد سبقنا أوربا إلى تمدين الشرق والغرب ، وخلّف أجدادنا آثاراً عجز عن محوها الزمان فكيف ظفروا بذلك الحظ من الخلود ؟

الكتاب هو السرّ في عظمة أجدادنا ، فقد كان فيهم من يحجّ بيت الله وهو يرى إلى غاية غير أداء فريضة الحج ، كأن يقف في عرفات للسؤال عن كتاب

وعدوان المغول على بغداد لم تسجّل فظائعه في غير ظاهرة واحدة هي تزويد أسماك دجلة بما كان في بغداد من نفائس المؤلفات

والحريق الذي صاول الفسطاط ستين يوماً لم يذكر المؤرخون من بلائه غير اجتياحه لذخائر المكتبات

وكان المسلمون حين يستنفرون إخوانهم للدفاع عن بلد من بلاد الأندلس يقولون إنه وطن النوابغ من المؤلفين والشعراء .

وحين تفرّق شمل المسلمين في بعض العهود الماضية وجد النابهون لآثارهم العلمية والأدبية والتشريعية ما يعمر مئات المكاتب ، ويضمن الزاد النفيس للأفهام والعقول ، بحيث لا تخلو مدينة من آثارهم الجياد

إن أساس المدنية يرتكز على العلم في جميع العصور ، حتى عصور الظلم والاستبداد ، ألم تروا أن مغامرات هتلر أوحى بها كتاب ؟

إن الدافع والطيارات والأساطيل ليست إلا تعابير عن جانب من طغيان القوة الفكرية ، كما أن الآداب والفنون تعابير عن جانب من ذلك الطغيان

لا تسمعوا لمن يثبطونكم عن الحياة الفكرية ، بحجة أن هذا الزمن ليس زمن الفكر وإنما هو زمن القوة ، فالفكر هو المصدر لكل قوة ، ولو تمثلت في أبشع الألوان

ومصر تتمتع اليوم بسمعة طيبة من الناحية الفكرية ، وهي تدعوكم إلى مواصلة الجهاد العلمي والأدبي ، لتصلوا بها إلى ما تسمو إليه من العزة بين كبار الشعوب

أنا لا أكتفي بأن يكون حظ مصر من المجد القديم هو الأستاذية لفلاسفة اليونان في التاريخ القديم ، وأكره أن يكون حظ مصر في العهد الإسلامي مقصوراً على رعايتها للحضارة الإسلامية بعد سقوط بغداد

لنا ماض مجيد حفظه التاريخ ، فقد سبقنا أوربا إلى تمدين

انظروا إلى الأمام ولا تنظروا إلى الوراء ، فالفكر من حظ مصر فى جميع العهود ، وسيكون لها فى المستقبل تاريخ يفوق جميع التواريخ ، وستعرفون صدق هذه النُّبُوءة بعد حين .

الأستاذ محمد المهياوى

فُجِع الأدب وفجعت الوطنية فى رجل كان من الأعلام بين رجال الأدب ورجال الوطنية ، وهو أخونا الأستاذ محمد المهياوى ، على روحه ألف تحية وألف سلام

مات المهياوى بعد أن كافح فى سبيل الأدب وفى سبيل الوطن أعواماً نيِّفتْ على الثلاثين . والذين عرفوا المهياوى كما عرفته يؤمنون بأنه كان قوة وطنية وأدبية قليلة الأمثال

نشأ المهياوى نشأة أزهرية — وكان أبوه من كبار العلماء بالأزهر الشريف — ولكنه تمرد على الأزهر فى وقتٍ مبكر ، وانطلق إلى ميدان الحياة الأدبية والوطنية بقوة وعنف ، ومضى يصاول ذات اليمين وذات الشمال ، إلى أن ظفر من قلوب عارفيه بمنزلة لا يظفر بمثلها إلا كرام الكاتبين

يجب أن تقول كلمة الحق فى الأستاذ المهياوى ، بعد أن رأينا أنه لم يُرثَ إلا بكلمات قصار لا تَنقل من شمائله غير ملامح غامضة المعانى ، وبعد أن رأينا أصدقاءه يمنّون على الوفاء بأنهم جازفوا براحتهم فشيعوا جنازته فى عصرية وهاجة القيظ !

كان المهياوى يجدّ فى كل ما يكتب ، وكان جِدُّهُ أثراً من صدق العقيدة فى الأدب والوطنية والدين ، وكان مع جده الصارم غاية فى حلاوة الدعابة ؛ فهو المنشئ لأكثر دعابات « الكشكول » يوم كان لمجلة الكشكول سلطان

وفى الأعوام التى اشتد فيها الخلاف بين الحزب الوطنى والوفد المصرى كان المهياوى أخطر كاتب نافح عن الحزب الوطنى ، وقد أبلى بلاءً حسناً فى مقاومة « مشروع ملنر » ، ولم يتركه إلا بعد أن مزقه كل ممزق ، ومجموعة « جريدة الأمة » تشهد بصدق ما نقول .

اشترك المهياوى فى تحرير كثير من الجرائد والمجلات ، وكتب فى الجد وفى الهزل ، ولكنه فى جميع أحواله كان قوى المنطق ، متين الأسلوب

وكان المهياوى شاعراً من الطراز الجيد ، ولو جُمعت قصائده الجدية لكان من مجموعها ديوان نفيس . أما قصائده الهزلية فهى غاية فى اللطافة ، وكانت توقع باسم « الشاعر إياه » فى مجلة الكشكول

وإذا كان الرجوع إلى الجرائد القديمة يُتعب من يريد معرفة القيمة الصحيحة لهذا الكاتب ، فأنا أوصى بمراجعة كتاب « الطبع فى الشعر » وقد نشرته « مكتبة النهضة » ، وهو كتاب يشهد لمؤلفه بالبراعة الفائقة فى شرح الدقائق من أسرار البيان

وللمهياوى كتاب اسمه « مصر فى ثلثى قرن » ، وهو كتاب يصور آمال مصر وآلامها فى العصر الحديث ، وفيه وثبات من الفكر ، وبوارق من الخيال

وقالت انجلترا بعد رفع الحماية « الكلمة الآن لمصر » فنشر المهياوى رسالة بعنوان :

« الكلمة لمصر ، ولكن ليس لمصر أن تتكلم »

وهى رسالة شرح فيها ما كانت تعانى مصر بسبب الاحتلال

وكان المنفلوطى هدفاً للناقدين فى أوج شهرته الأدبية ، ولكن المهياوى تفرّد برسالة طريفة سماها « فصص المنفلوطى » وسيكون لها مكان حين يؤرخ النقد الأدبى فى هذا الجيل

وأول كتاب نشره المهياوى هو « الفرائد » وهو مجموعة ما كتب فى مطلع صباه ، ولو رجعنا إليه لرأيناه على سذاجته صوراً تشهد بحيوية الإحساس ويقظة الوجدان

أخي الأستاذ المهياوى

أفى الحق أنك مت وأنى لن أجدك إن حاولت أن أراك ؟

لا يُتعبنى أن أتحيز لك فأختلق محاسن لم تكن فيك ، وإنما يتعبنى أن أبرز محاسنك الأصيلة على الوجه اللائق بمكانها الرفيع

أفى الحق أننا لن نلتقى فى الدنيا مرة ثانية ، ولن نقضى أياماً كالأيام التى قضيناها فى سنتريس بين الزهر والقمر والماء ؟ أفى الحق أننا لن نتصاول بالعقول كما كنا نصنع عند التلاقى ؟

تلك أيامٌ خلَتْ ، ولن تعود ، فعليك وعليها تحية الشوق الذى لا يموت

لو رأيت فيك ما يعاب لخفّ حزنى عليك ، ولكنى لم أرك

إلا روحاً أرق من الزهر وأقسى من الزمان ، وتلك هى الخصيصة الأساسية لأحرار الرجال

كنا صديقين ، وكنت أنت الأكرم والأطيب ، فكيف أجزيك وقد ضاعت فرص الجزاء ؟

وهل تنتفع بكلمة فى رثائك وقد مضيت إلى نعيم لا يعادله نعيم ؟

إن موتك دليل على خلود الروح ، فما يجوز فى نظر العقل أن تكون نهايتك هى النهاية ، وقد قضيت حياتك فى شقاء بسبب الحرص على صدق الوطنية وصدق اليقين

هل تعرف « ههيا » أنك نقشت اسمها على جبين الزمان ؟ وهل تعرف « مصر » أنها فجعت فيك ؟ وهل تعرف قيثارة الشعر أنها فقدت وتراً كان غاية فى حنان الرنين ؟

هذا ما أملك فى رثائك ، أيها الصديق الغالى ، وهو أقل مما يجب لك ، وعلىّ عهد الله أن أشيد بذكراك إلى آخر الزمان

بين المدارس والكليات

بدت فى هذا العام ظاهرة تستحق التسجيل ، لأنها لم تقع من قبل ، وهى تأخر المدارس عن الكليات فى العودة إلى استئناف الجهاد . ومحاربة الجهل أشرف ضروب الجهاد

أيكون ذلك لأن الطلبة أقوى من التلاميذ ؟ أيكون ذلك لأن الأساتذة أحرص من المدرسين ؟

لا هذا ولا ذاك ، وإنما هى فرصة أتاحها القدر لنعرف كيف أسرفنا فى استعجال الناشئين إلى ساحات النضال

الطالب فى الكلية غير التلميذ فى المدرسة ، فالأول جاز دور التكوين الجسمانى ، فعليه أن يحمل الواجب فى صدره وإن كان فى إجازة رسمية . أما التلميذ فلا يزال جسمه فى دور التكوين ، وراحته من متاعب الدرس تعود عليه بالنفع الجزيل

الطالب يعود إلى الكلية وهو على بينة مما سيدرس ، فهو يعود جذلان ، أما التلميذ فيجهل ما سيعانى من مصاعب الدروس ، لأنه تلميذ ، والمنهاج يفرض فرضاً على التلاميذ

والأستاذ بالكلية غير المدرس بالمدرسة ، فالأول يضع بنفسه موضوعات الدروس كما يشاء ، وفى حدود ما يطيق ، أما الثانى فيواجه موضوعات يوجبها « الجدول » ، وقد يكون فيها ما ألقاه بالنص والفص عدداً من السنين

أما بعد فماذا أريد أن أقول ؟

أنا أريد النص على أن الإجازات ليست من الأوقات الضوائع ، كما يتوهم بعض الناس ، وإنما هى مواسم لتكوين الأبدان والأرواح والأحاسيس ، وتلاميذ المدارس أحوج إليها من طلبة الكليات ، وما وقع فى هذه السنة وقع بالمصادفة ، ولكنى أحب أن يكون واجباً نراعيه فى الأعوام المقبلات

هل تذكرون أن إجازات المدارس الأولية زادت فى هذا العام عن ثلاثة أشهر ، وأن ناساً عدّوها ترفقاً خرج عن الحدود ؟

أنتم تذكرون هذا ، ولكنكم تنسون أن الأطفال بالمدارس الأولية كانوا يعودون إلى الدروس فى شهر أغسطس وهو « آب ، اللهاب » ، كما يسميه أهل الشام والعراق

ترفقوا قليلا بالأطفال ، واذكروا أنهم فى عهد التكوين ، وأن راحتهم من الدروس غذاء يفوق كل غذاء

ثم ماذا ؟ ثم انتهز الفرصة فأتحدث عن مشكلة تعانيها المدارس ولا تعانيها الكليات ، وسأفصّل حديثها بدون إسهاب :

هذا مدرس عينته الحكومة بمدرسة ابتدائية وفرضت عليه أن يلقى أربعة وعشرين درساً فى الأسبوع ، فاحتمل العبء راضياً لا كارهاً لأنه فى عنفوان الشباب

وهذا المدرس نفسه ظل يخدم العلم بالمدارس الابتدائية إلى أن شارف التاسعة والخمسين ، فكيف يجوز أن يحمل من أعباء الدروس ما كان يحمل قبل أن يصل إلى الثلاثين ؟

عليه أن يحتمل أو يعتزل ، فالمدارس تعرف التلاميذ ولا تعرف المدرسين ، لأن نتائج الامتحان هى العنوان ! ولو أنها خففت العبء عن المدرس الذى تقدمت به السن لقدّم لها منافع تفوق الحدود

المدرسة الفلانية هى أولى المدارس ، لأن تلاميذها بلغوا حدود التفوق ، ولم تكن أولى المدارس لأن مدرسيها ظلوا من نكد العيش فى أمان

التلميذ هو المقصود بالعطف والرعاية ، أما المدرس فهو جلمود لا يجوز عليه الإفضال

هو مدرس ، ومهنة التدريس « مهنة بلا مجد » فليصبر كارهاً على جدول كان يطيقه قبل الثلاثين ، وليقل « راضياً » إنه يطيقه فى التاسعة والخمسين !

إلى من توجه القول ؟